مؤسسة الكتاب الثقافية

48

سلسلة ((في الأخلاق والمجتمع)) 5-6

علي عليه السلام الإنسان

الدكتور إبراهيم الجعفري

اهداني كتابه المحقق
ابراهيم علي عليه السلام
مشهد
محمد

سلسلة ((في الأخلاق والمجتمع)) 5

علي عليه السلام الإنسان

الدكتور إبراهيم الجعفري

سلسلة في الاخلاق والمجتمع

مجموعة محاضرات القاها

الدكتور إبراهيم الجعفري

خلال شهر رمضان المبارك عام ٢٠٠٦

ارتأت مؤسسة الكتاب الثقافية نشرها

في هذه السلسلة لتعميم الفائدة

مؤسسة الكتاب الثقافية

كانون الاول ـ ٢٠٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز :
((ومِنَ الناس مَنْ يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوفٌ بالعباد))
وقال (سبحانه وتعالى)، في آية قرآنية ثانية :
((مِنَ المؤمنين رجالٌ صَدقوا ما عاهدوا الله عليه فمِنهم من قضى نحبه ومنهم مَنْ ينتظر وما بَدّلوا تبديلاً)).
إن الحديث عن الإمام علي (عليه السلام)، حديث في غاية الصعوبة، والصعوبة لا تكمُن في أنك عمّاذا تتحدث، لكن الصعوبة تكمُن في أنك ماذا تختزل؟ لأنك أمام عالم حاشد بالقيم، حاشد بالمفاهيم، وحاشد بالمواقف.
إن عالَم "علي" ليس عالماً ساكناً، بل هو عالم متحرك، له امتداداته التي لا تقف عند حد، وما توقفت بتوقف بدنه، وقلبه عن النبض، بل ظلت هذه الامتدادات تتفاعل على مر الزمن.
لقد امتد عالم "علي" إلى التأريخ، وأعطانا مفهوماً حول كيفية قراءة التأريخ, فالإمام علي (عليه السلام)، يجسد الآية القرآنية الكريمة :
((لقد كان لكم في قصصهم عبرة لأولي الألباب)).
يقول الإمام على مخاطباً ولده الحسن (عليهما أفضل الصلاة والسلام) :
(أي بني إني وإنْ لمْ أكُنْ عمرتُ مَن كان قبلي، لكني نظرتُ في

أعمالهم، وفكرتُ في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم حتى عـــــدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى اليَّ أمرهم عمـــرتُ عمرهم من أولهم إلى آخرهم).

هذا مفهوم حياتي لقراءة التأريخ؛ لأنك عندما تقرأ التأريخ قراءة عَلوية، تقرأ التأريخ قراءة قرآنية صحيحة، فهي ليست عملية تسلية، وإنما عملية إضافة عمر إلى عمرك، وفكر إلى فكرك، وقيم إلى قيمك، فتتحول من الذي لك بضعة عقود من الزمن، إلى الذي لك بضعة قرون من الزمن، بل بضعة آلاف من الزمن، لأنك تأخذ من حـــياتهم وما انتهت إليه، إلى حـــياتك، لتكون امتداداً لذلك التأريخ فيصبح التأريخ حاضراً بين يديك.

علي... لم يكن يمتد إلى التأريخ من زاوية ماضوية تأريخية، بـــل امتد إلى المستقبل، فشكل حاضراً يتحدانا نحن المعاصرين للزمن، فيكون قد سبقنا، ونحن نشعر أننا متخلفون عنه، بل ونتطلع إليه. لنتلمس بـــعض المصادر، (علي) يقتحـــم عالم الكون والفضائيات منذ ذلك الزمن، ومنذ ذلك الحين! تماماً كما قال من تولى تربيته، أي: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لو تعلقتْ همّة أحدكم في الثريا لنالها).

وقد كان ما سبق إشارة كريمة، إلى ضرورة التفكير بالفضاء... يقول علي (عليه السلام) :

(سلوني عن طُرُق السموات فإني أعلم بها من طرق الأرض).

أي: إن هناك طرقـــاً، وهناك مجالاً يمكن أن تعرجوا من خلاله إلى السماء، وتنزلوا بأبدانكم وليس بأرواحكم: (سلوني عن طرق السموات والأرض).

من أين جاءت لـ (علي) هذه الطاقة؟ وقد أطلّ (عليه السلام) على علوم المستقبل التي بدأ العالم يضع لُبناتها الأولى الآن فقط، فتجده يقتحم عالـم التشريح، فيقول ويصف الإنسان: (إن الإنسان، يسمع

بعظم).

علم التشـــريح، علم متأخر, فمن كان من العلماء يُدرك أن عند الإنسان مطرقة وسنداناً خلف غشاء الطبلة بالأذن الوسطى، وعندما يسمع الإنسان تتحول الموجات الصوتية عبر الطبلة، فتقرع العظمين، السندان والمطرقة، ثم تتحول إلى تلك الحالة المعروفة بعلم الطب!! فمن الذي أعطى (علياً)، هذه العلوم؟.

الإمام علي (عليه السلام) يقتحم علم النفس، وتجده يتحدث عن إفرازات القرن العشرين، (سيجموند فرويد)، اكتشف ضمن الحيل النفسية أن الإنسان في بعض الأحيان يحاول أن يكبت بداخله بعض المزايا، ثم تخرج على شكل فلتات لسان slip of the tongue)),(defense mechanism) , كسُبُل للدفاع عن النفس، والإمام علي (عليه السلام)، يقول: (ما من خصلة يضمرها الفرد إلا وظهرت على فلتات لسانه).

في علم النفس، هناك حقائق كثيرة يختزنها نهج البلاغة، ونحن أحياناً نفسر تصرفات الناس بما نحسه في داخلنا، فنُسقط ما فينا من شرور على الأبرياء، حيث نفسر سلوكهم بأنه سلوك شرير، وهذه الحالة سماها علم النفس بـ (الإسقاط) "projection"وتعني: أنك تُسقط ما في نفسك على الآخر، فتجد أن الآخرين أشرار، وهم ليسوا كذلك.

الإمام علي (عليه السلام)، سبق علم النفس (السايكولوجيا) في الحديث بهذا، فيقول: (الرجل السوء لا ينظر للآخرين بخير أبداً لأنه ينظر للآخرين من خلال نفسه).

إن (الإسقاط) الآن يشكل مشكلة اجتماعية كبيرة، لأن الإنسان يحاول أن يفسر الآخرين من خلال ذاته.

رحلة الإمام علي (عليه السلام) امتدت إلى المستقبل، إلى القضاء،

وإلى السياسة، فكتب كتابه المشهور إلى (مالك الاشتر)، ليخبره كيف يُدير الدولة!! وأية دولة؟... دولة كمصر.

لقد استيقظ العالم، والأمم المتحدة في القرن الواحد والعشرين، وفي عام ٢٠٠٢ على وجه التحديد، فكتبت لجنة التنمية والتأمين، وحقوق الإنسان تقريراً عن خطبة (علي) في مائة وستين صفحة باللغة الإنكليزية، وعمّمتها على رؤساء العالم، لتقول لهم: هذا خليفة المسلمين، حيث أخذت منها محاوَر عدة، كمحور السلطة، والقضاء، والتعامل مع الرعية بأصنافها المتعددة، ومحور البيئة كذلك.

إن رحلة الإمام علي (عليه السلام) تجاوزت الزمن، إذن.. عندما نتحدث عن (علي)، نتحدث بامتدادات لا حدود لها.

الإمام علي (عليه السلام) امتد إلى الغيب! فكيف امتد إلى الغيب؟ وهو الذي يقول: (كل شيء في هذه الدنيا سماعه أعظم من عيانه).

أنت تسمع بلذة معينة، لكن عندما تمارسها تلاحظ أنها من ناحية المعاينة، والمباشرة أقل بكثير مما تسمع بها، فما أن تباشر اللذة، إلا وتبدأ بالضعف وتؤول إلى الزوال, أما الآخرة فينقل لنا أمير المؤمنين العكس عنها: (كل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه).

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، سبق أمير المؤمنين حين قال: (رأيت ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطَر على قلب بشر).

لذلك ينصح أمير المؤمنين قائلاً: (كل شيء في هذه الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه فاكتفوا من العيان السماع ومن الغيب الخبر).

لكن، كيف تعاملنا نحن مع الخبر؟ وكيف تعامل (علي) مع الخبر؟

علي (عليه السلام) تعامل مع الخبر الغيب وكأنه يقين، ولذلك

يقسم وهو الصادق المُصدق: (والله لو انكشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً).

من أين جاء بهذا، حيث امتد إلى الغيب ليقول ما قال وأي عقيدة وهب؟ لقد وهبته هذه العقيدة، حالة من الاندكاك في بوتقة الانصهار في الله (تبارك وتعالى)، حيث لم تعُد تشكل الدوافع الأخرى حافزاً له بالحركة نحو الله، وإن كانت حوافز مشروعة!!.

ما الذي يدفع الناس إلى الارتباط بالله (تبارك وتعالى)، إما طمع برحمته، أو طمع بجنته، أو خوف من ناره، أو قناعة وحب به, وهذه الدوافع الثلاثة تُحصَر حصراً عقلياً لا رابعَ لها, فالإنسان حتى في بيته مع أمه وأبيه، إما أن يحترمهم ليدرأ العقوبة عن نفسه، أو لأنه يطمع بهم، أو لأنه يحبهم ويعتقد بهم.

إن التربية الصالحة، هي التي تُجذر الحب في نفوس الأولاد والأطفال ، والاعتقاد بأمهاتهم وآبائهم وليس الخوف منهم، أو الطمع فيهم.

فرق كبير بين ولد يحترم أباه، و بين آخر يريد أن يتجنب شره، وفرق كبير بين ولد يحترم أمه لأنه يعتقد أنها يمكن أن تعطيه مساعدة يطمع بها, وبين من يقف بإطلالة رائعة وحضارية وإنسانية فيحترم أمه وأباه لأنه يعتقد بهما، ولأنه يحبهما. يقول الإمام علي (عليه السلام): (اللهم إني عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً بجنتك، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك).

عندما يقول: (لا خوفاً من نارك)، ليس معناه أن النار لا تخيفني, وعندما يقول: (لا طمعاً بجنتك) ليس معناه أني لا أطمع بالجنة! لكن دافع العبادة ليس هذين (أي: الطمع أو الخوف)، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك، وهذا أسمى ما يصل إليه الإنسان في العبادة.

إن العبادة تنطلق من الذات, ومن عقل منفتح, وقلب استسلم لله

(تبارك وتعالى) قال تعالى: ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)).

المسألة أن لا يؤدي الإنسان الفريضة بالقوة، وتحت السوط، وأن لا يؤديها بسبب الطمع، بل أن يؤديها من عمق إيمانه.

محنة علي، أنه عاش أكبر من عصره، لذلك ضاق به عصره، وضاقت به الأجيال، لكن تتدفق هذه الحالة مع مر الزمن، فينفتح الآخر على (علي)، وأي آخر؟ ينفتح على أبي الحسن (عليه السلام)، الآخر المذهبي، فتجد الكثير من إخواننا أبناء السنة يتحدثون عن (علي)، وعن قضاء (علي)، وعدل (علي) وشجاعة (علي)، وزهد (علي).

يكفي أن نذكر في هذا المجال ما كتبه الأستاذ (محمود عبد الفتاح) عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، في أربعة مجلدات رائعة جداً، وما كتبه (عباس محمود العقاد)، وغيرهما كثير.

لقد تحدث عن علي الآخر الديني أيضاً، فقد كتب (جيكتور لآب) فيه خمسة مجلدات تحدث فيها عن علي، و(الثورة الفرنسية، والعدالة، والحرية، وحقوق الإنسان، و...و.. إلى آخره)، إذن (علي)، يتحدث مع هؤلاء، ويمتد (عليه السلام) لكل هؤلاء.

علي... يتحدث عن الغيب بطريقة لا يستطيع (المادي)، أن يتحدث عن ماديته بالشكل الجزمي، واليقيني كما يتحدث (علي بن ابي طالب)، فهذا (كارل ماركس) رائد الحركة المادية على مستوى التحليل التاريخي، والذي قدم تفسيراً مادياً، وعلمياً للتأريخ، ينقل عنه (راجا ارودي) فيقول: عندما سُئِل (كارل ماركس)، في مؤتمر اتحاد الطلبة: أين أنت من الماركسية؟ قال: أنا (كارل ماركس)، ولكني لست ماركسياً!.

لقد عجز (كارل ماركس) عن أن يدافع عن ماركسيته، وهو

المادي المشتغل بأدوات الحس في تفسير التاريخ، وعملية التحول الديالكتيكي، والانتقال الذي حصل من المجتمع الشيوعي الأول، إلى المجتمع الشيوعي الثاني، عجز!.

عندما تتحدث عن شخصية كشخصية (علي بن أبي طالب)، فكيف فهم (عليه السلام) الحكم؟ وكيف فهم الموقع؟ هو لم يفهمه غنيمة, لذلك حار الناس في تفسيره, فما كان يريد هذا (أي: الحكم)، وخير من عبر عن ذلك (عمر بن صعصعة)، مخاطباً أمير المؤمنين عندما آلت إليه الخلافة: (لقد زيَّنتَ الخلافة وما زينتك، وشرَّفتها وما شرَّفتك، ورفَعتها وما رَفَعتك، وكانت هي لك أحوج مما أنت إليها).

عبارة بهذا القصر في منتهى البلاغة، وقد طابقت مقتضى الحال، فكان حكيماً) أي: عمر بن صعصعة)، في توصيفه للإمام علي (عليه السلام).

لقد كان (عليه السلام)، يفهم التصدي مواساة للناس، وليس تمايزاً على الناس، وقد كان له موقف مع عامله في البصرة في وقت ما، واسمه (العلاء بن الحارث) أو (العلاء بن زياد الحارثي)، زاره وقد كان مريضاً، فدخل إلى بيته فوجده بيتاً كبيراً قال له: (ما لك يا علاء وهذا البيت؟ ألم تكن أنت للآخرة أحوج له من الدنيا).

وحين قال له الإمام ذلك، تأمل (العلاء) في نفسه، وبدت علامات الانكسار على وجهه، ثم أردف (عليه السلام)، وتداركه فقال: (بلى تستطيع أن تصل به الآخرة، إذا وصلت الرحم، وأكرمت الضيف).

وبدأ يعطيه مجموعة أشياء، يستطيع أن يحوّل بها بيته هذا إلى معبر للآخرة، ثم شكا له (علاء بن زياد الحارثي) أخاه عاصماً، وقال له: أشكو لك أخي عاصماً، قال: ما به؟ قال: انقطع، لبس عباءته،

وانقطع عن الدنيا، هذا (أي: عاصم)، فهم أن الدين يعني الانقطاع والعبادة، فقال الإمام: عليّ به؛ فجاء, فقال له: (يا عُديَّ نفسِه (عديّ مصغر عدو) لقد هام بك الخبيث, (أي: إن الشيطان هام بك)، أ تظن أن الله الذي أحلَّ لك الطيبات، حرّم عليك أن تتمتع بها، أنت أهون على الله من ذلك).

إن الله (جل وعلا)، لا يخاف منك!! فالله حللها لك (عاصم بن زياد الحارثي)، كان متفقهاً نسبياً على طريقة (لقلقة لسان)، فقال للإمام: يا هذا، أنت أمير المؤمنين بخشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك، (أي: أنت يا علي على الرغم من كونك الخليفة فملابسك قديمة وطعامك بسيط)، ماذا أجابه؟ قال له وهذا درس لكل متصدٍ للسلطة: (أنا لست كأنت، أخذ الله على أئمة الهدى أن يتأسّوا بفقراء المسلمين، لكي لا يتبيغ بالفقير فقره).

أي: إنك عندما تتصدى لموقع متقدم، يجب أن تكون أكثر تأسياً بفقراء المسلمين، فإن كنت لا تقدر على أن تعالج مشكلات الفقراء المساكين، فيمكن أن تواسيهم, حيث تستطيع أن تواسي الفقراء، وتعيش مثلهم؛ لتخفف عنهم.

هكذا كان يتعامل الإمام علي (عليه السلام)؛ لذلك كان أميراً للمؤمنين، نتيجة ما يقول، وما يتصرف، كان يُودِع في محبيه، ومريديه، وكل من يمضي على طريقه يُودِع فيهم أسرار هذه الحياة، ففي إحدى مقالاته القصيرة يقول: (أوصيكم وصايا خمساً؛ لأن شددتم إليها المطايا حتى تنضوها لن تظفروا بمثلها).

أي: إني أعلمكم خمسة أشياء، لو ركبتم كل وسائل النقل إلى أن تتعبوا، لن تحصلوا مثلها: (ألا لا يرجون أحدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي أحدكم إذا سُئِل عمّا لا يعلم أن يقول لا أعلم، وإذا كان لا يعلم لا يستحي أن يتعلم ألا وإن الخامسة فهي الصبر فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فمن لا صبر

له لا إيمان له ومن لا رأس له لا جسد له).

انظر الروعة، فالإنسان يُراد له مجموعة أسرار يمسكها، ويحفظها فالإنسان يريد سر الغنى، وكيف يصبح غنياً ؟ بالمال؟ ليس شرطاً, بأنواع الثروة الأخرى؟ ليس شرطاً، بالسلطة ؟ ليس شرطاً؛ (ألا لا يرجون أحدكم إلا ربه)، إذا أريدت أن تكون عزيزاً وغنياً حقيقياً؟ ارجُ الله فقط، ولا ترجُ غيره؛ هذا هو السر الأول؛ فسر الغنى أن ترجو الله، ولا ترجو غيره.

(ولا يخافن إلا ذنبه)، هذا سر الشجاعة، تريد أن تعيش متأسياً ببطولة (علي)، وشجاعته، فلا تخفْ أحداً، لكن خفْ من ذنبك، فإذا كان عندك ذنب فيجب أن تخافه، فمادمت لا تملك ذنباً فلا تخف، وليصرخ كل الناس، ويتكلموا ضدك، فأنت ليس لديك ذنب فلا تخف, وإذا كان عندك ذنب فليمدحك كل الناس... لا يفيدك، لأنك تعرف أن لديك ذنباً.

كما يعطينا (عليه السلام)، سراً آخر هو سر الثقة بينك وبين الناس: (...وإذا سُئِل أحدكم عما لا يعلم لا يستحي أن يقول لا أعلم).

قوتك ليس في أن تجيب على كل شيء، بل إن قوتك أن تصدق في كل شيء، بعض الأحيان تقول لا أعرف، وهذه هي القوة، فلا يوجد داعٍ لأن يبقى الشخص ينتحل هذا الأسلوب وذلك الأسلوب، وهذا الكذب، وهذه المبالغة، والظنون وإلى آخره، حتى يقول: أنا أعرف، قل لا أعرف إذا لم تكن تعلم.. هذا سر الثقة بينك وبين الناس، سيعطيك جسر الثقة لتمده معهم.

بعد ذلك يعطيك سر الترقي، والارتفاع بنظر الله: (وإذا كان أحدكم لا يعلم، فلا يستحي أن يتعلم)، ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلم درجات)).

هذا سرّ، فامسكه، هل تريد أن ترتفع بنظر الله؟ اطلب علماً: ((قل

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))، ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات))، ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)).

ثم تريد سر الثبات، وعدم الانهيار أمام أعاصير الحياة, أعطيك السر الخامس ألا وإن الخامسة هي الصبر: (فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد, فمن لا صبرَ له لا إيمان له ومن لا رأس له لا جسد له).

لاحظ أنك تستطيع من الناحية الطبية أن تصور الإنسان بلا يد، بلا رجل، بلا عين، بلا أذن، بلا لسان, كل شيء ممكن أن تتصوره, شيء واحد لا تقدر أن تتصوره, لا يوجد إنسان بلا رأس، لأن الشخصية في الرأس, وفي المخ, ما لديك من تصورات عن أهلك، وزوجتك، وكل شيء حولك يوجد في رأسك, إذن كيف تكون بلا رأس، أي إذا ذهب رأسك، ذهبت منك شخصيتك كلها.

لقد جعل الإمام (عليه السلام)، الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد: (فمن لا صبر له لا إيمان له ومن لا رأس له لا جسد له).

لذلك فالإنسان في بعض الأحيان يواجه المشاكل في الحياة، وقد جعل لك الإسلام صمام أمان، وهذه وصية علي (عليه السلام) ولمواجهة هذه المشاكل يجب أن تنشغل بأحد أمرين: إما أن تعمل، وتسعى من أجل حلها: ((وأن ليس الإنسان إلا ما سعى وأن سعيه لسوف يُرى)).

وأما إذا كنت لا تقدر أن تحلها فاصبر عليها، ليست الخسارة عندك مشكلة بحياتك، ولا الناس الناجحون هم الذين ليست لديهم مشاكل في حياتهم، ولا السعادة خلو الحياة من الفشل، كل هذا خطأ.

الإنسان الناجح عنده محطات فشل، والإنسان السعيد لديه إحباطات، إنما الناجح والسعيد هو الذي لا ينهار أمام المشكلات، بل

يثبت في محله: ((ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)).

لذلك: (من لا صبر له لا إيمان له ومن لا رأس له لا جسد له). الإمام علي (عليه السلام)، في شدة إنصافه للناس، ينصف الناس بطريقة يعجز الإنسان عن وصفها، لنلاحظ أنفسنا في بعض الأحيان نجد أننا نتشبث بالمبادئ، ونتحدث بها، ونورد الأدلة والاستدلالات في المورد الذي يكون لصالحنا, نشجب الظلم لأننا مظلومون، ونشجب الغيبة لأن الغيبة وقعت علينا، ونذكر الناس بالكرم لأننا فقراء، ونريدهم أن يكرمونا، ونريد أن نذكر الناس بصلة الرحم لأننا نعاني من حصار القطيعة؛ كله من صالحنا.

الإمام علي (عليه السلام)، كان يتكلم بهذه المبادئ، وهو يملك كل عناصر القوة, شيء رائع، كيف أنصف الآخرين من موقع الاعتداء عليه, أنصف الشقي (عبد الرحمن بن مُلجم)، وفي هذه الليلة, ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ضربه على رأسه الشريف ضربة جبان، في صلاته وفي السجود!!، فمن يستطيع أن يصل إلى الإمام علي (عليه السلام)!!؟

بعد بدر، (هند أم معاوية) زوجة (أبي سفيان) قالت (للوحشي): أريد منك أن تقتل لي محمداً ...قال لها: مالي ومحمد والمسلمون كلهم دونه، قالت له: علي... فقال لها : أما (علي) فهو كالثعلب، يرمي بطرفه بعدة اتجاهات، صعب أن أصل إليه... فقالت له حمزة.... قال لها: نعم؛ حمزة كالأسد الهائم، إذا اتجه إلى مكان لا يلتفت وراءه، فأقدم عليه من الخلف، وقتله.

الإمام علي (عليه السلام) عجزت صناديد العرب عن أن تقترب منه، ولعل ما حصل في واقعة الخندق خير دليل، لا يوجد أحد لا يذكره في معركة الأحزاب، حيث بلغت القلوب الحناجر، وكان (عمرو بن عبد ود العامري) يتحدى المسلمين، فما برز إليه ألا أبو

الحسن، وقتله.

وبعد قتل (عمرو بن عبد ود)، حصل الإمام (عليه السلام)، على الشهادة من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث قال: (ضربة علي يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين)، وعندما خرج الإمام علي (عليه السلام)، قال سيد الكونين (صلى الله عليه وآله وسلم): (برز الإيمان كله إلى الشرك كله).

انظر الى الإنصاف الذي تحلى به الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وماذا قال بحق (عبد الرحمن بن مُلجم) قال: (ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه).

يلتمس له بعض العذر, منتهى الموضوعية أنك تطبّق القانون، والفكرة، والمبدأ والقيم لصالح عدوك، ومن أي موقع؟ من الموقع الذي يجهز على حياتك الشريفة!! ماذا أكثر من هذا؟

لذلك محنة (علي)، تكمُن في أن (علياً)، مثّل الحق في عمقه فأغاظ الباطل، وحرك الباطل في عمقه، وواجه الباطل في عمقه.. هذه محنته.

أمير المؤمنين جَسَّد مبادئه في قيمه، وجسَّد قيمه في مواقفه، وجسَّد مواقفه في تضحياته، وهو في مبدئه، وقيمه، ومواقفه، وتضحياته قمة شمخت على قمم التاريخ، وامتداد يتجاوز حواجز الزمن، لذلك يبقى (علي)، فوق كل شيء، على الرغم من كل ما واجه من صعاب

هكذا بقي (علي)، حداً فاصلاً بين المؤمن والمنافق، فصلوات الله وسلامه عليه يوم وُلِد، ويوم استشهد، ويوم يُبعَث حياً.

سلسلة ((في الأخلاق والمجتمع)) 6

عطاءات ليلة القدر

الدكتور إبراهيم الجعفري

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:
((إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة)).
الحديث عن ليلة القدر هو الحديث عن الليلة النوعية التي تختلف عن بقية الليالي، وهي جزء من الزمن النوعي، والزمن النوعي يختلف عن الزمن الاعتيادي كما إن المكان النوعي يختلف عن المكان الاعتيادي، والإنسان النوعي يختلف عن الإنسان الاعتيادي، والمجتمع النوعي أو الأمة النوعية تختلف عن الأمم الاعتيادية.
كل هذه المصاديق نلتقيها في القرآن الكريم, الذي يتحدث لنا عن زمن يختلف عن بقية الأزمان:
((شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)).
لم يذكر أي شهر من الشهور باستثناء شهر رمضان:
((إنا أنزلناه في ليلة القدر)).
((إنا أنزلناهُ في ليلة مباركة)).
يذكر القرآن الكريم أيضاً لنا يوم الجمعة:
((... إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)).
وكذا يحدثنا عن المكان المبارك:
((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)).
وعندما جعل الله البركة، جعلها بمكة بل بـ (أرض الحَرَم)، التي

هي أكبر من مكة، وفي المسجد الحرام، وفي الكعبة الشريفة جعل فيها بركة، وكذلك جعل إنساناً مباركاً كعيسى (عليه السلام):

((و جعلني مباركاً أينما كنت)).

فعندما ننفتح على القرآن الكريم ونحن في شهر القرآن لابد لنا من أن نميّز بين الحالة الاعتيادية والحالة النوعية؛ فالقرآن يشير إلى هذه الليلة المباركة بأنها ليلة نوعية تختلف عن سائر الليالي، وكما يشير إلى المكان والزمان والأمة؛ الأمة النوعية:

((كنتم خير أمة أخرجتْ للناس)).

لماذا؟ لبُعدٍ نوعي:

((كنتم خير أمة أخرِجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)).

بهذا البُعد تتحول الأمة من أمة اعتيادية إلى أمة نوعية؛ لذلك فمقاسات الزمن النوعي تختلف عن مقاساتنا, ومقاسات المكان النوعي تختلف عن مقاساتنا, ومقاسات الإنسان النوعي تختلف عن مقاساتنا الإنسانية مثلما تختلف مقاسات الأمم، وتقييم الأمم بالنسبة لمقاسات الأمة النوعية.

لذلك لا نستطيع أن نفهم هذه الليلة بمقاسات اعتيادية، هي ليلة من مجموعة ساعات لكن القرآن الكريم يقول:

((ليلة القدر خير من ألف شهر)).

لماذا؟ لنوعيتها، حيث تبقى هناك مجموعة أسئلة تُثار في هذه الليلة؛ ماذا يعني القدر؟ ولماذا سُميَتْ ليلة القدر؟.

قيل: إن هذه الليلة سُميت ليلة القدر: لأنها تُقدَّر فيها أقدار الإنسان من رزقه ومكانته وكل ما يتعلق بحياته إلى العام المقبل؛ فلأن الأمور تُقدَر له فقد سميت ليلة القدر.

وقيل: لأن هذه الليلة المباركة ذات قدر عند الله (تبارك وتعالى)

فسُميَتْ ليلة القدر، وقيل: سُميَتْ ليلة القدر؛ لأن في هذه الليلة نزل كتاب ذو قدر، على نبي ذي قدر بواسطة مَلك ذي قدر وهو جبرائيل الأمين.

وقيل: إن هذه الليلة سُميَتْ ليلة القدر؛ لأن القدر بمعنى الضيق، حيث ان كثرة نزول الملائكة والروح وكثرة وحي الملائكة يوجد هذا الضيق. الفرق أننا في عالم المحسوس المادي، والملائكة في عالم غريب لكن الروايات وردتْ في تفاسير متعددة من المدرستين؛ فما قيمة هذه الليلة؟ وما السر وراء جعل الله (تبارك وتعالى)، لهذه الليلة من القيمة العليا؟.

أولاً: اقتران هذه الليلة المباركة بإنزال القرإن الكريم، والقرآن الكريم نَزَلَ في ليلة القدر. ومن هنا نشأ علم من العلوم اسمه علم (الإنزال والتنزيل). ولعلنا نسأل هل نَزَل القرآن الكريم في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، أم إنه نَزَل في يوم آخر، وهل نَزَلَ القرآن كله في هذه الليلة، وكيف إذن نفسّر أنه نزل في فترة امتدت ثلاثاً وعشرين سنة:

((اقرأ باسم ربك الذي خلق)) ... إلى ((اليوم أكملتُ لكم دينكم و أتممتُ عليكم نعمتي)).

بينما نجد التراتبية الأخرى في القرآن الكريم بحسب الترتيب التوقيفي الذي أراده الله (تبارك وتعالى)، يبدأ بسورة (الفاتحة) وينتهي بسورة (الناس)، فكيف نوفّق بين نزول القرآن الكريم في ليلة واحدة كما تشهد به آيات كريمات من القرآن:

((إنا أنزلناه في ليلة مباركة)).

((إنا أنزلناه في ليلة القدر)).

((شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)).

وبين إدراكنا أن القرآن بمَكّيهِ، ومَدَنيهِ استغرق ثلاثاً وعشرين سنة, كيف نوفق بين هاتين؟.

هذا العلم هو أحد علوم القرآن الخمسة عشر، يتعرض للفرق بين الإنزال والتنزيل.

((الإنزال، والتنزيل) مأخوذ من النزول، وهو الهبوط من العلو على المحل أو على المكان, إذا نزل الشيء دفعة واحدة بكله فهو "إنزال" وإذا نزل الشيء بشكل تدريجي وأخذ وقتاً طويلاً فهو "تنزيل"؛ فالقرآن الكريم فيه إنزال وفيه تنزيل، ولذلك كان علم الإنزال والتنزيل.

لقد نزل القرآن الكريم بوجهات نظر تحليلية قرآنية مختلفة للمفسرين, القرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا, أنزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، مرة واحدة في مُحكَمِهِ ثم تَنَزَّلَ بالتفصيل على مدى ثلاث وعشرين سنة.

لنتحدث بشكل سريع: ما الحكمة من أن القرآن الكريم يُنْزَل ثم يَتَنَزَّل مرتين؟ يُشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، ونستطيع أن نستوحي منها أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله و سلم)، تَنَوَّرَ قلبُه الشريف بالآيات المُحكمة كلها، وكان يعرف القرآن بمُحكَمِهِ وأهدافِهِ البعيدة، وكان يُدركها جميعاً، ولذلك عندما تَنَزَّلَ على شكل آيات بحسب أسباب النزول، وهذا ما يتولاه عِلم" أسباب النزول" كان يُدرك مُسبَقاً- مثلاً- مَآل القبلة الشريفة أنها ستتحول من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة.. كان النبي يُدرك ذلك والقرآن يذكره :

((قد نرى تَقَلّب وجهك في السماء فلنولينك قِبلةً ترضاها)).

((وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره)).

لنسأل: ما قيمة هذا الإدراك المُسبَق؟

النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) قائد أمة، والقائد يجب أن تكون عنده قدرة استشراف للمستقبل؛ حتى يُمارِس دوره القيادي فيجب أن لا يَقصِر نظره على الأمور الآنية التي يتساوى فيها مع سائر الناس؛ فكان يدرك إلى أين سيؤول مصير كثير من

الأحكام، كما في أحكام حُرمة الخمر التي تدرجت من :
((يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كثير ومنافعُ للناس وإثمهما اكبر من نفعهما)).
وفي آيات أخرى :
((...لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى)).
وفي آية أخيرة تقول :
((إنما الخمر والمَيسر رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه)).
هذا تدرج، النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان بفضل الإنزال الذي حصل في مُحكم الآيات القرآنية الكريمة يُدرك مآل هذه الآيات التدريجية، واتجاهاتها إلى أين ستؤول، وهذا يعطينا درساً اجتماعياً سياسياً رائعاً وهو: أن من يتولى أمر القيادة، يحاول أن يستشرف أفق المستقبل إن لم يكنْ على المدى البعيد جداً، فلا أقل على المدى المتوسط، حتى لا يأخذ بأمته وبشعبه إلى الهاوية.
وعليه أن يدرك أن هناك سُنناً اجتماعية، وتلك السنن ما أن يستطيع التفاعل معها بروح وبنَفس صافية، وعقل متفتح، فإنه يَتَلمّس آثار الأشياء قبل وقوعها، لذلك جاء في الحديث الشريف :
(اتقوا فَراسَة المؤمن فإنه ينظر بنورِ الله).
قبل وقوع الأشياء، ويستطيع أن يقرأ ما يَلوح في الأفق فيُجَنِّب نفسه، وشعبه، وأمته بعض هذه الكوارث.
هذا هو الدرس الأول الذي نستوحيه من هذه الليلة، وفي الوقت نفسه، ليلة القدر ولادة رسالة، وهذه الرسالة بالقرآن الكريم الذي نزل على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هي التي تُحيي أمة، وتكوِّن أمة عندما تجتمع مع القيادة.
هناك درسان إضافة إلى الدرس الأول هما: ولادة قيادة، وولادة رسالة، وبالقيادة والرسالة تولد الأمة، ولا قيمة للأمة عندما تكون كَمّاً بشرياً فقط.

من يراقب سير الأمم لا يجد هناك ثمة تناسب بين العدد السكاني ورُقيّها على سُلّم المجد أبدا، إذ إن كثيراً من أمم العالم تمتلك كمّاً هائلاً من البشر لكنها لا تحظى بموقع متقدم في التأريخ، وهذا في الحاضر، ولا تستطيع في المستقبل ان تتقدم لمجرد كونها كمّاً فقط.

إنما الأمة التي تتقدم، وترتقي على سلّم المجد هي الأمة التي لها رسالة تنبض بمفاهيم الحياة، ولها رسول وقائد يُجَسّد تلك الرسالة، فهي تنظر إلى هذه الرسالة، وإلى هذا الكتاب فتجد فيه تنظيراً، وتجدُ فيه أحكاماً، ومفاهيم، وتجد في شخصية الرسول حالة من التجسيد، وحالة من الكتاب الناطق، والمتحرك الذي يُجسّد القرآن الكريم. في ليلة القدر وُلِدت أمة من خلال ولادة رسالة، وولادة رسول في هذه الليلة المباركة، في الوقت نفسه نلتقي في ليلة القدر مع أن الإنسان في هذه الليلة المباركة بناءً على ما أشار إليه القرآن الكريم، والروايات الشريفة التي جاءت عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعن أئمة أهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، حول أن الإنسان في ليلة القدر يكون أمام فرصة رائعة للانفتاح للدعاء.

إن الأدعية بكل تأكيد تختلف من زمن إلى زمن، كما تختلف من مكان إلى مكان، و لذلك تسمى (مضانّ الدعاء)، وهي الأزمنة، والأمكنة، والحالات التي يُستجاب فيها الدعاء دون غيرها. لقد وردت روايات كثيرة تؤكد على أن الدعوات في هذه الليلة المباركة مستجابة، وبالتالي يستطيع الإنسان أن يتوجه بقلب منقطع إلى الله (تبارك وتعالى)، ويوفر لدعائه شروط الاستجابة، والله (تبارك وتعالى) يستجيب؛ لذا يجب أن لا يفوّت الإنسان في مثل هذه الليلة كثيراً من المشكلات التي استعصت في حياته، وكثيراً من الأهداف التي لم تتحقق في حياته، أنه في الوقت الذي يحاول أن

يبذل وسعَهُ من أجل تحقيقها، عليه أن يعرّج عن طريق الدعاء إلى الله (تبارك وتعالى)، ويطلب منه قضاء هذه الحاجة..

في مثل هذه الليلة، ليلة القدر المباركة يُستجاب الدعاء، أضف إلى ذلك أنها ليلة وعد الله (تبارك وتعالى)، عباده بالتوبة وإجراء المحاسبة في هذه الليلة، وطلب التوبة والعودة إليه.

هذه الليلة تجعل الإنسان يطوي مسافة طويلة، قد لا تتوافر له في وقت آخر يطلب من الله (تبارك وتعالى)، غفران الذنوب، لذلك جاء في الحديث الشريف:

((إنه من مضى عليه شهر رمضان أو من مضت عليه ليالي القدر ولم يغفر الله له فلن يغفر الله له إلا أن يتداركها في عرفة بالحج والحج عرفة). من هنا لابُد لكل من ارتكب ذنوباً، ومعاصي معينة أن يُدرج ذلك في ورقة ويكتبها بالتفصيل، ويتجه إلى الله (تبارك وتعالى) بقلب منقطع، ويسأله التوبة عن هذه الذنوب.. فمن أسهم في هدر دم، ومن أسهم في الإرهاب، ومن أسهم في خطاب إرهابي، وهذه معاصٍ كبيرة.

من هوَّنَ هذه الأعمال، ومن فرح بها، ومن استهان بها، كل هؤلاء مذنبون؛ لأنها أعمال يرفضها الشارع المقدس جملة وتفصيلاً.

هناك الكثير من الذنوب والمعاصي، قد تعتري حياة الإنسان في عموم السنة، وليلة القدر فرصة ليُهيئ مقدمات الانقطاع إلى الله (تبارك وتعالى)، علّهُ يتداركه في هذه الليلة، ويعطيه من الأجر، والثواب، ويُصحح مساره للعام المقبل، وفي الوقت نفسه تُعَد هذه الليلة ليلة تحوّل، فكيف يتم هذا التحوّل والتغيير؟.

من هنا اكتسبت هذه الليلة قيمة نوعية، ليس المهم كم من الوقت تقضي، وكم من الزمن تستغرق في عمل ما، بل المهم هو قيمة الآثار المترتبة على ذلك الزمن؛ لذلك نجد في مصاديق الزمن النوعي أن رواية شريفة تقول:

(تَفَكُّر ساعة خير من عبادة سنة).

أو قيل: (ستين سنة).

وقيل: (سبعين سنة).

تَفَكُّر ساعة؛ الإنسان أحياناً يمر به الزمن، وهو واقف في محله، وأحياناً يوازي حركة الزمن، وأحياناً يسابق الزمن عن طريق التفكّر، وطلب العلم، وقد يكون هذا التفكّر مدعاةً لإحداث التحول من داخله، فليلة القدر ليلة تحوّل، وعلى الإنسان الذي ينوء بثقل الذنوب والمعاصي أن يفكّر بشكل جدي في كيفية التخلص منها وكيفية اكتساب الصفات الجيدة والحميدة، وكيفية توديع ليلة القدر، وقد مر على كل معصية من المعاصي عملية هدم، ومر على كل صفة جيدة من الصفات، وعرج عن طريق الدعاء لطلبها من الله (تبارك وتعالى)، حتى اكتسبها.

الإنسان عنده عملية هدم، وعنده عملية بناء، بناء الشخصية، وتربيتها فيها عملية هدم وعملية بناء، والهدم يسبق البناء، قال الله تعالى:

((قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا)).

(لا إله) تهدم كل آلهة الطاغوت.. كل شيء غير الله (تبارك وتعالى)، عندما تعبده، وتدور حوله بما فيها الذات:

((أرأيت من اتخذ إلهه هواه)).

وفي آية أخرى:

((أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)).

هذه عبادة؛ فتبدأ عملية الهدم، ثم يُشاد على هذه القاعدة صَرْحُ البناء الشامخ الذي يقوم على قاعدة التوحيد الحقيقي، وإلاّ لا قيمة أن نذكر (إياك نعبد) عندما نقولها عشر مرات على نحو الوجوب في الصلاة اليومية، وكل مرة نقول: (إياك نعبد) ماذا تعني (إياك نعبد)؟ تعني لم يقل: (نعبدك)، بل قال: (إياك نَعبُد)

حيث قدم المفعول به على الفعل (إياك نعبد) معنى ذلك: أننا نعبدك ولا نَعبُدُ سواك هذا المفهوم الأول.

المفهوم الثاني، أننا نعبدك بكلنا لا نجزئ بالعبادة، لا أعبدك بالصوم والصلاة فقط، أو بالوضوء والغسل والتيمم فقط، ولا أعبدك في العلاقة الزوجية، وأتصرف برأيي، ولا أعبدك في المكاسب فأدخل بالتجارة برأيي، ولا معنى أن أعبد الله (تبارك وتعالى) في مناسك الحج والعمرة، ولا أعبدهُ في السياسة فأستبيح الحرمات، ويحصل عندي - لا سمح الله- ازدواج في الخطاب أقول شيئاً، وأعمل آخر.

هذا كله يتنافى مع مفهوم (إياك نعبد)، فكلمة (إياك نعبد) هي جَعْل النفس تتجه بكُلِها إلى الله (تبارك وتعالى)، بلا تجزئة، ومن دون تبعيض، فهذه الليلة ليلة تحوّل والإنسان يجب أن يستثمرها لأنها فرصة، نعم هي فرصة؛ لأن النفس أخذت شوطاً كافياً من التربية على مدى الثلثين الأولين من شهر رمضان المبارك.

يُفترَض أن تكون ليلة القدر، والله العالم بها قيل: هي ليلة التاسع عشر، و قيل ليلة الحادي والعشرين، وقيل ليلة الثالث والعشرين، وهي الرواية الأقوى عندنا، وقيل ليلة الخامس والعشرين، وقيل ليلة السابع والعشرين، وقيل الليالي الفردية في العشر الأخيرة من الشهر المبارك.

إن هذا التعدد والترديد في الروايات بين الأيام، هو لأجل أن تتوافر للعبد ليتوسل إلى الله (تبارك وتعالى)، بأكثر من ليلة بهذا الطلب، فإخفاء ليلة القدر، يُتيح فرصة للإنسان ليتعامل مع أكثر من ليلة فهذه الليلة المباركة يجب أن تُستثمَر بالعبادة، وقراءة القرآن الكريم كما وردتْ في الروايات الشريفة، وبالصلوات والمحاسبة، والمراجعة.

في ليلة القدر، يجب أن لا يشغل الإنسان نفسه فقط بذكر الدعوات

من دون أن يغوص في أعماقـــــها، ويُدرك مفاهيمها، ويعزم على اكتساب هذه المفاهيم، وإلاّ سيصبح الدعاء لَقلَقة لسان لا قيمة له، نُردده ولا نُدرك معناه، أو نُدرك معناه ولا نعمل من أجل تطبيقه؛ فمن يُرد أن يقطف ثمار ليلة القدر عليه أن يتسلح بقوة الانقطاع بالقلب إلى الله (سبحانه، عز وجل).

هذه الليلة المباركة عطاء من السماء ينزل لكل الناس، ولا يوجد تفاوت في العطاء، ولكن يوجد تفاوت بالتلقي.. الله (تبارك وتعالى)، بصفته المعطي، يعطي لعباده كافة، لكن هناك تفاوت بالتلقي كما تنظر إلى السماء عندما يهطل المطر، تتساوى عندك كل الجوانب، ولا تجد فرقاً في العطاء بالسماء لكنك عندما تنظر إلى الأرض تجد هنا حفرة كبيرة أخذت ماءً كثيراً، وهنا حفرة صغيرة أخذت ماءً قليلاً، وهنا أرضًا محدبة لم تأخذ ماءً.

لم يكن هذا الفرق بالكمّ الكبير والمتوسط، وعدم وجود الماء فرق بالعطاء من السماء، إنما هو فرق بالتلقي فالله (تبارك وتعالى)، يعطي كل عباده، وعلى الإنسان أن يتجه.

لذلك حتى هذه الصورة القرآنية :

((و أنزلنا من السماء ماء فسالت أودية بقدرها)).

ليس بقدر الماء، بل بقدر الوادي، الوادي عندما يكون كبيراً يأخذ ماءً كثيراً، وعندما يكون متوسطاً يأخذ ماءً متوسطاً، وعندما يكون صغيراً يأخذ ماءً قليلاً.

لذا لابد للإنسان من أن يروّض نفسه في هذه الليلة، ويفتح قلبه، ويوسّع من وعاء القلب؛ حتى يستلهم أكثر ما يمكن من التغيير لتتحوّل هذه الليلة إلى ليلة ولادة؛ فالولادة البدنية واحدة، أما ولادة الفكر، وولادة الخُلُق، وولادة السياسة، ولادات متعددة في حياة الإنسان.

أنا أعتبر كل تحول ولادة؛ فلا يتردد الإنســـــان، ولا يخجل، ولا

يستحي من أن يثور على داخله بالعكس فهذه بطولة.

التغلب على العدو يحتاج إلى قدر من الشجاعة، ويحتاج الإنسان إلى شجاعة أكبر حتى يتغلب على نفسه، والإنسان في بعض الأحيان عندما يُريد أن يتخذ القرار بداخل نفسه، لعله في البداية يتردد من جهة أنه بعد هذا العمر، والانطباع الذي أخذه الناس عليه الآن يغيّر من نفسه؟ هذا خطأ..

على العكس من ذلك، الحقيقة هي انك يجب أن تكون رائدنا في حركتنا بالحياة، وقد تأتيك الحقيقة وأنت ابن العشر سنين، أو ابن العشرين سنة، أو ابن الثلاثين سنة، أو ابن الأربعين سنة، و قد تأتيك وأنت ابن الستين، أو السبعين.

إن عجلة التغيير ماضية بلا توقف، وعلى الإنسان أن لا يتردد أمام الحقيقة، وأن لا تصبح لديه عقدة الاستمرار بالزمن، والتي بتقادم الزمن تتحول إلى عقدة نفسية، وبالتالي ينغلق، بل عليه أن يتخذ القرار الشجاع.

الإمام علي (عليه السلام)، جعل من عملية اكتساب الصفات عملية ديناميكية متحركة في المعدل اليومي، فقال (سلام الله عليه) ؛

(من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن كان أمسُه أفضل من يومه فهو ملعون).

لقد أراد لنا الامام علي، أن نحقق فرقاً على مستوى اليوم الواحد، وليس فقط على مستوى العام، ولم يقُل مَن تساوى عقداه من الزمن، أو عاماه من الزمن، أو شهراه، أو أسبوعاه لكن قال :

(مَنْ تساوى يوماه فهو مغبون).

من هنا لا بُد لكل واحد منا أن يدرك هذه الحقيقة، وهي أن الله إنما أبقاني حياً ليوم إضافي ليس فقط حتى آكل ثلاث وجبات من الطعام!! أو حتى أتنفس فأحرق أوكسجين، وأطرح ثاني

أوكسيد الكربون؟ أم حتى أحقق فرقاً في العطاء، بمعنى عطاء روحي على مستوى القلب، وعطاء علمي على مستوى العقل، وعطاء أخلاقي على مستوى الضمير والوجدان، وعطاء نفسي، وعاطفي على مستوى النفس، وعطاء بدني على مستوى البدن.

هذه العطاءات يجب أن يلمسها الإنسان، ويشعر أنه قد يضعف :

((ومن نعمّره ننكّسه في الخلق)).

يضعف بدنه، وتضعف ذاكرته لكنه يستطيع أن يواصل نموه من الناحية الروحية، وهذه ولادة، وعندما يأخذ الإنسان حصة كافية من التزود الروحي والسلوكي، ويتخذ جملة قرارات شجاعة يراجع نفسه.. فلنتحاسب في ليلة القدر، ونسأل: هل هذا التعامل صحيح، وهل هذا يتطابق مع ما يريده الله (تبارك وتعالى)؟.

أنا أتعامل مع جاري، هل هذا التعامل صحيح أم غير صحيح؟ أنا أتعامل مع كثير من الناس، وقد تحولت إلى عادة، وعندما أقول: (عادة)، أعني أني خرجت عن دائرة الوعي، ودائرة الحساب.

الإنسان بمثل هذه العادات لا يستطيع أن يراجع نفسه، بل يحتاج إلى لحظات ينسلخ، وينظر إلى نفسه من خارجها.. ليلة القدر يجب أن تكون ليلة انسلاخ من الذات، ومراقبة الذات من خارجها، أين أنت وإلى أين ماض؟ هذا ما يجب أن يحصل... ثم يجب أن نفهم أن الدين ليس دين عبادة بالمعنى الأخص، إنما هو دين عبادة بالمعنى العام.

إن طلب العمل عبادة، لذلك من المستحبات في ليلة القدر أن يطلب الإنسان عملاً، قال الله (تبارك وتعالى) :

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)).

يستطيع الإنسان أن يعمل في هذه الليلة المباركة، ويقوم بعمل معين ويُحسّ بقيمته إن أقرنه بمرضاة الله (تبارك وتعالى)،

فيتحوّل إلى عبادة كما يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأبي ذر الغفاري:

(يا أبا ذر إن استطعتَ أن لا تأكل، ولا تشرب إلاّ لله فافعل).

أنت تأكل وتشرب، وتمارس الملذات جميعاً، قُل هذه قربة إلى الله فإنها ستتحول إلى عبادة! ليس لدينا رُهبانية عندما يتعامل الإنسان على هذا النمط، ويَمرّ بهذه المسارات المتعددة في جوانب شخصيته، ويراجع نفسه كلها بسلوكه كله.

الانسان سيخرج من هذه الليلة وهو مولود جديد، وعندئذ هذه الولادة الجديدة ستكون ولادة بالفكر، وولادة بالسلوك، وولادة بالمشاعر والعاطفة، لتمتدّ إلى ما يلحق هذه الليلة المباركة..

ندعو الله (تبارك وتعالى)، أن يجعل هذه الليلة المباركة مصدر رحمة، واستجابة للدعاء، وغفراناً للذنوب لكل المؤمنين.. والسلام عليكم و رحمة الله وبركاته.

مؤسسة الكتاب الثقافية

- الإصدار الثامن والاربعون -

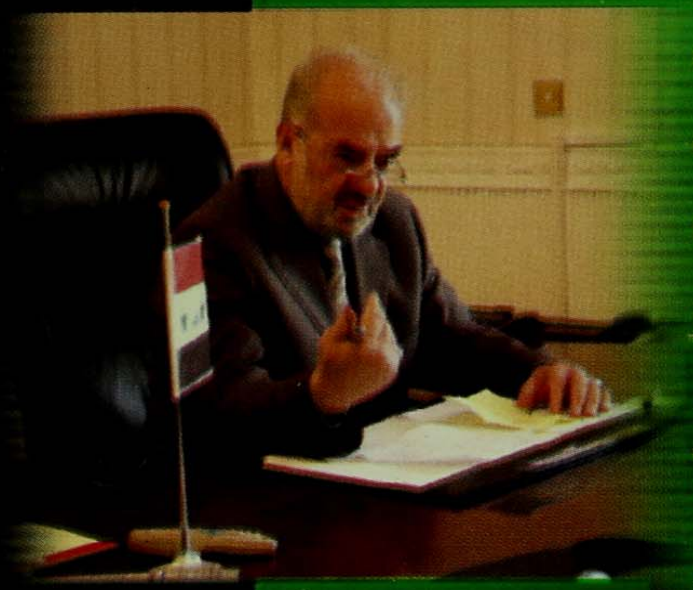

الامام علي (ع) جَسَّد مبادئه في قيمه، وجسَّد قيمه في مواقفه، وجسَّد مواقفه في تضحياته، وهو في مبدئه، وقيمه، ومواقفه، وتضحياته قمة شمخت على قمم التاريخ، وامتداد يتجاوز حواجز الزمن، لذلك يبقى (علي)، فوق كل شيء، على الرغم من كل ما واجه من صعاب.

إبراهيم الجعفري

مؤسسة الكتاب الثقافية